مقابلة أدبية مع : الروائي غانتر غراس

أجرى جان لوك لوغري حديثا مع الروائي الالماني « غانتر غراس » بمناسبة ظهور آخر كتاب له : « سمك الترس » (١) . ويعتبر هذا الحديث ، الذي نشرته مجلة « الكانزان ليتيرار » (العدد ٣٠٣) ، بالغ الاهمية ، اذ ان غانتر غراس لا يتكلم فقط عن كتابه الجديد بل هو يجيب على أسئلة عديدة حول :

ـ ما يسميه « حقائق التاريخ » .

ـ خلود الاساطير ، أعمال ليفي ستروس ، نظام الامومة (٢) ، صراع الاجناس ، الغزوات الانثوية الحالية الهشة .

ـ حول تقليد ملحمي للادب يعود الى رابليه ويستمر مرورا بسترن ، ملفيل ، جويس ، دوس باسوس ، دوبلن (وهو يعتبر دوبلن أحدث من توماس مان أو برشت ، ويعتبره معلما له بعض الشيء) ، وحول الادب الكلاسيكي الفرنسي الذي بقي دون صدى في الخارج .

ـ حول ادب اللغة الالمانية التي تعتبر الاهم في هذا الزمن .

وتنقل « الآداب » فيما يلي أهم ما ورد في هذه المقابلة :

س : لنتكلم قليلا عن رواية « سمك الترس » . لماذا اخترت الشكل الروائي لها ؟

ج : ان هذا التصنيف هو في الحقيقة تسوية بليدة . كنت أود أن أسمي كل ذلك « حكاية » ، لكن النقد الادبي وناشري ارادا التصنيف الروائي . ويجب علينا أن نضيف ان « الحكاية » في المانيا ما تزال تعتبر شكلا أصغر لحاجة الاطفال .

س : انك تدرج الشعر في الحكاية . فأية أهمية تمنحه اياها ؟

ج : تتخلى الحكاية ، بسبب شكلها ، عن جميع الحواجز المألوفة . فان القفزات الزمنية وخلود بعض أبطال الرواية ، كالسمكة مثلا ، واضحان كل الوضوح ، غير انه لا يجب توضيحهما على ضوء العقل ، بل انهما معطيان من البداية : هنا ، السمكة تتكلم ، وهذا كل شيء . فلست مجبرا أن أشرح لماذا هذه السمكة تتكلم ، فالحكاية تشرح ذلك على طريقتها الخاصة .

س : اذن فان الحكاية تتضمن جميع انواع القصة ؟

ج : نعم . بالاضافة الى ذلك ، فان كلمة « واقعية » هي التعبير الاكثر اتساعا ، وفهمنا لتلك الكلمة اصبح فهما محصورا جدا . فهي من الان فصاعدا ادراك ما هو عاطفي ، ما هو قابل للالتقاط وللمس . ان الواقعية ـ الاشتراكية تردنا الى افكار ـ وقائع ، بينما انا افهم الواقع بما هو نداء لميدان « الخيالي » . فليس لدي أية تفرقة بين ما يحدث في داخلنا وما يحدث خارجنا . ليست لافكارنا اي تسلسل تاريخي ، فنحن الذين نفرض عليها ذلك الضغط الخارجي الذي يخضع كل شيء للتسلسل التاريخي والذي يؤكد ان الخيال يجب ان يستمد موضوعه من مجرى الاشياء الواقعي . ان كل ما نكتبه عن التاريخ هو سجين التسلسل التاريخي . فبينما تصلنا الاحداث التاريخية بفارق قرنين او ثلاثة ، فاننا نصمم على جمعها بالتسلسل التاريخي ، ربما لان ذلك اسهل بالنسبة لنا واكثر توافقا مع المواضعات . وقد اردت ان اصور كذلك خلفية تاريخية ـ تاريخ الغذاء ـ ولما كان ذلك غير وارد اطلاقا في النصوص التاريخية التقليدية ، فقد كان لا بد لي من ترك التسلسل التاريخي .

س : هل أضفت واقعية على التاريخ بمساعدة الحكاية ؟

ج : ربما ان بداهة الحكاية تسمح لنا ، دون ان يكون لنا ان نشرح الاسباب ، بعض الاحلام ، وبعض الرغبات ، نماذج مثالية ، كرغبة الانسان ، في رواية « الطبل » ، في البقاء صغيرا ، في ان لا يكبر او في ان يطير ، او رغبة السمكة في التكلم ... فلقد كان باستطاعتي ان أقدم تلك الافكار في حكايتي دون ان آخذ على عاتقي الشروحات البسيكولوجية .

---

(١) جنس اسماك بحرية من فصيلة المفلطحات (ملاحظة المترجمة)

(٢) نظام اسرة مبني على سلطة الام (م.م) .

س : هل يمكننا القول ان الميتولوجيا بالنسبة لك اهم من التاريخ ؟

ج : نعم ، فان الميتولوجيا في نظري لحظة حقيقية، واقعية . اننا نحتاج للكثير من الملاحظات ، وهذا ما يتجلى في الفصل المخصص للهند في كتابي . فنحن نواجه اليوم في الهند ، وفي جميع بلدان العالم الثالث، المشاكل نفسها التي واجهناها في القرن السادس عشر ، أي قبل ظهور البطاطا التي أصبحت غذاءنا الاساسي الثاني . ان بلدان العالم الثالث عرفت حاليا ما اكتشفناه في القرن الثامن عشر : ظهور غذاء أساسي ثان كسلاح لمحاربة المجاعة . ان اكبر قسم من الانسانية كان يتغذى لمدة طويلة بغذاء واحد في الشمال ، الذرة البيضاء ، ولم يكن لعدد السكان أن يزداد الا بظهور البطاطا . فان للبطاطا اهمية أكبر بكثير مما ذكر في كتب التاريخ . فهم يكلموننا دائما عن صراعات السلطة ، عن سياسة الاسر المالكة .غير ان حرب السبع سنوات ، بجميع معاركها، لم يكن لها اية نتيجة في تطور المنطقة . فليس هناك من اهمية لان تكون سياسيا تابعة للنمسا او لبروسيا . فان ادخال البطاطا هو الحادث الذي أحدث تغييرا مهما.

س : اهذا ما تسميه « حقائق التاريخ » ؟

ج : نعم ، فالتاريخ التقليدي لا يذكر شيئا منها . حتى التحاليل التاريخية الماركسية التي تكرس قسما كبيرا للتطورات الاقتصادية ، لا تصنفها الا في الدرجة الثانية من حيث الاهمية . يجب أن نتكلم مثلا عن فترة أخرى مهمة في القرن السادس عشر ، تلك الفترة التي عرفت ازمة اقتصادية تقارنها بأزمة البترول الحالية : فقد اكتشفت بلاد الهند بالطرق البحرية وسعر البهار سقط من ٤٥٪ الى ٦٠٪ ففي البداية لم يكن متوفرا سوى بهار اوروبا ، وكان البهار يستعمل كمعيار للعملة، تماما كالدولار في أيامنا هذه . وقد امتدت الازمة وتفاقمت من البرتغال الى اسبانيا، ثم سيطر الانكليز على الاسواق التجارية ، ثم الهولنديون ... وهكذا دمرت العملة .

س : هل استعنت باعمال ليفي ـ ستروس في مواضيعك ؟

ج : بالطبع . لقد كان ليفي ـ ستروس مهما جدا بالنسبة لي . لقد فكرت خاصة بما يتعلق باساطير «النار» . في اليونان القديمة مثلا ، عندما انتصر مبدأ « زوس » ، خلق نظام بجميع القيم الابوية(١)، وخلق معه اسطورة بروميتيه الذي ينتزع النار . تلك هي طريقة العالم الرجالي التي يعطي من خلالها معنى للنار . ولليفي ـ ستروس مجموعة من الاساطير الهندية ، يعود

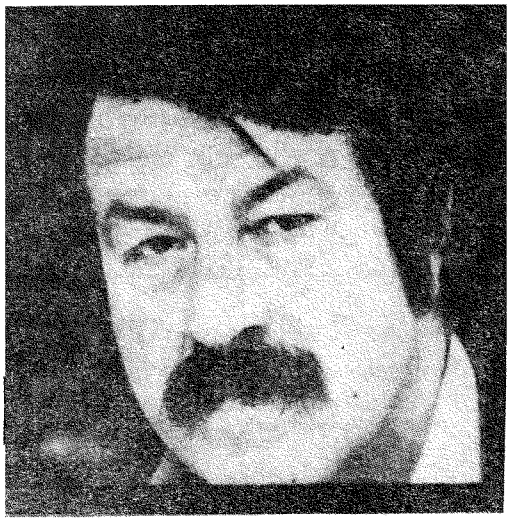

غانز فرانس

تاريخها الى العصر الحجري ، وحيث المرأة دائما حاضرة. لقد أردت في كتابي « سمك الترس » ان آخذ الفكرة نفسها وان أطورها بطريقتي الخاصة .

س : أنت تعتقد اذن ان نظام الامومة سبق نظام الابوية ؟

ج : نعم . ولكن ذلك لا يعني ان نظام سلطة المذكر قد سبقه نموذج مؤنث لذلك حاولت ان أطور ، عندما اذكر في حكايتي مراحل نظام الامومة ، امثالا مختلفة تماما حول السيطرة . لقد سيطر على الرجال في ذلك الوقت حضور صدر ثالث : اذ انهم ، وهم يحملون كأطفال ، قد ظلوا بليدين ، خاملين . لم تكن قد تبلورت في اذهانهم الفكرة التي ستكون فيما بعد تاريخهم ، أي نظام التقدم. ان شكل التطور الامومي دائري .

س : هل تريد ، عندما تعطي الرجال هذا الدور النسبي ، ان تدخل في التاريخ مزيدا من الواقع ؟

ج : ليس التاريخ الا خيال يكذب المؤرخون حين لا يعترفون بأنهم يصنعون خيالا . أما أنا ، فأضع نفسي دفعة واحدة في الخيال . انني أخترع . ان العمل التاريخي يرتكز على وثائق لا يقوم بقاؤها في اكثرالاحيان الا رهن الصدف . ان المنتصرين هم الذين عموما يتركون العدد الاكبر من الشهادات ، لدرجة اننا لا نعلم شيئا فيما يختص بالمهزومين . غير ان مهزومي الامس يمكنهم أن يصبحوا ، بعد ثلاثة قرون ، الفئة التي ستحدد

(١) نظام اسرة مبني على سلطة الاب (م.م) .

مجرى التاريخ . ولنضرب مثلا : هناك لوحات عديدة ووثائق حول انشاء الامبراطورية الالمانية سنة ١٨٧١ تقر بأن هذا التأسيس بالغ الاهمية في تلك الفترة كان اوغيست بيبيل ، وهو اشتراكي ديموقراطي، في السجن، لا أحد يتكلم عنه . وفي الحقيقة، لم يبق شيء من الامبراطورية البسمركية ، وبيبيل هو الذي صنع التاريخ . هنا المثل يوضح الطابع الخيالي الموجود في الوثائق التاريخية . أمام ذلك ، يصبح للكاتب الخيار ان يخترع بعض الوثائق باللجوء الى خياله ، وربما كانت تلك الوثائق اصدق وادق مما كتب من قبل ...

س : لنعد الى مسألة النظام الامومي . الا تعتقد ان تلك المسألة تعبر عن قلق الرجل امام المرأة ؟

ج : هذا صحيح بمعنى من المعاني . فنحن الان وللمرة الاولى في وضع فقد الرجال فيه ، من جراء انهزاماتهم الاقتصادية ، والعسكرية وجميع المحاور الاخرى . ثقتهم بنفسهم . تلك المرحلة المميزة بالقلق وفقدان الامن، وذلك التأكيد الذي اجتاح الرجال بانهم حملوا على عاتقهم أشياء كثيرة ، يتوافقان مع اندفاعة الحركة النسائية الحيية او المناضلة . وهذا طرح آخر للموضوع . عذا ما حاولت ان اعبر عنه في كتابي.

س : هل تعتقد انه شيء مهم ان يعترف الرجال بقلقهم هذا ؟

ج : نعم ، ذلك مهم جدا ، لان ذلك هو اشارة الى انهم يفقدون ثقتهم بنفسهم لكن هذا لا يكفي ليجعلنا نعرف المرحلة التالية . ذلك يتعلق بالشكل الذي ستتخذه الحركة النسائية . باستطاعتنا القول الان ان التوجه النسوي لتلك الحركة الاكثر انتشارا بين الجمهور، بالرغم من انه ثانوي . والحقيقة ان هذه الفئة ، مهما كانت مناضلة ، تمثل الاقل خطورة بالنسبة للرجال ، اذ ان هؤلاء النساء لا يطالبن في الحقيقة الا أن يجدن مركزا في المراكز الذكورية . ذلك لا يغير شيئا ، لان الرجل سيقول حينئذ : « طبعا ، انت مديرة جيدة ، انت جديرة بذلك » . عندئذ يصبح الرجال والنساء متماثلين . وهذا ما اسعى الى اظهاره . والحقيقة ان اخطر النساء على الرجال هن اللواتي يتصورن بدائل انطلاقا من انثويتهن . ولا يوجد من ذلك الصنف الان سوى بعض « الاشكال الاولى » . ان الفلسفة الاوروبية من البداية حتى ايامنا هذه ، تحمل الطابع المذكر . وذلك يؤدي الى الاعتراف بان جميع تصوراتنا حول القيم والاخلاق والسلطة والزمن والتاريخ والدين تحمل الطابع المذكر ، وذلك يتنافى كليا مع النسوية . اذ ان مؤيدي الحركة النسائية يريدون تفرقة الاجناس ويمكن للرجال ان يقولوا اليوم : «نحن متشابهون ، فلنتقاسم » . لنتقاسم السلطة . ولكن عندما تقول النساء : « نحن نختلف ، باستطاعتنا ان نحل صراعات لم تحسنوا معالجتها بواسطة الحرب . وذلك بادراكنا المؤنث، عندئذ تستطيع كثير من الخلافات التي سببها الرجال ان تحل. ان تاريخنا بأكمله قد كتبه الرجال وفسروه. والمرأة لا تظهر فيه الا اذا كانت تتصرف كرجل كفولدا مائير واديرا غاندي وماري تيريز . لقد قيل ان غولدا مائير كانت الرجل الوحيد في حكومتها ، وكان ذلك يعتبر مديحا . ونحن لا نجد نساء يتصرفن بقوة كنساء ، ولكن على العكس ، نساء يستخدمن سلطة الرجل ويتصرفن كرجال ، وفي بعض الاحيان بعنف وبرودة اكثر من الرجال انفسهم .

س : منذ بضعة أعوام ، كتبت نساء بعض الكتب يحددن فيها مركزا نسائيا بحتا ..

ج : هناك محاولات . هناك مثل هيلينا ستيفانس في المانيا الاتحادية : اننا نجد في لغتها سياسة يفتقدها الرجل ، ذلك شيء قد يفهمه ، لكنه يعجز عن صياغته. ان هناك لغة مختلفة ، رؤية مختلفة للمشكلات لست أدري الى اين يفضي ذلك ، اذا كان هناك . انطلاقا من هنا ، احتمال باعطاء شكل ملموس لافكار في مجالات للرجال تقليديا ، كالفلسفة مثلا . سيكون ذلك على كل حال ، امرا مرغوبا فيه . يجب ان يكون هناك بدائل نسائية للتصورات المذكرة للاخلاق والسلطة .

س : كيف يمكنك ان تحدد هذا البديل النسائي ؟

ج : يصعب على الرجل ان يرد على هذا السؤال . المرأة وحدها تستطيع الاجابة . عندما اراقب الطريقة التي يلجأ اليها الرجل والمرأة لحل مشاكل اطفالهم، الاحظ ان النساء يعرفن كيف يجدن حلولا دون اللجوء الى العدوانية . واذا نقلت تلك المقدرة ، التي توجد في العائلة بكمية قليلة ، الى مستوى المجتمع ، اقتنعت بان هناك بديلا لما يحدده العقل ، ولكن هناك بديل ايضا للنتائج اللاعقلانية للمفاهيم المذكرة ، عندما تحصل الخلافات. ربما كان لهذا البديل اصل لا عقلاني ، ولكنه في الفعل يتضح انه معقول .

س : انت تقول ان العلاقات بين الجنسين صعبة. بل ان بعض النساء ، وافكر بغاليري سولاناس ، ينطلقن من استحالة العلاقات بين الجنسين فيجعلن من الشذوذ الجنسي اللحظة القصوى . ما رأيك في ذلك ؟

ج : اعتقد ان ذلك هروب . ان اختلاف الجنسين يجد لحظته الايجابية في التوتر القائم بينهما . فاذا ابعدت ذلك التوتر ، لا شيء يتوضح ، كل شيء يصبح مملا . بل يجب على العكس ان ننطلق من هذا التوتر الذي هو منتج . يجب مواجهته .

س : أليس غريبا ان يكون الفصل الوحيد الدراماتيكي حقا في رواية « سمك الترس » يتخذ الشذوذ الجنسي النسائي موضوعا له ؟

ج : تقصد ان سياقه دراماتيكي . الواقع ان ذلك الفصل يختلف من حيث الشكل . انه قصة منفصلة ، نوع من الفكرة الضدية ، فضلا عن انه الفصل الوحيد ، باستثناء الفصل عن الهند ، الذي تدور احداثه خارج دانزيك ، بعد الحرب ، في الستينات .

س : هل تفكر احيانا ، عندما تكتب ، بأشكال موسيقية ؟ انت تتكلم عن الفكرة الرئيسية وعن الفكرة الضدية ...

ج : لقد تخيلت رواية « سمك الترس » اولا من تسعة اجزاء تطورت فيما بعد مع بعض القصائد ، والقطع النثرية ، اجزاء تتشابك ، تنحل ، تلتقي وتلتقي من جديد كانه اتحاد وثيق . ان ذلك أشبه بقطعة موسيقية يتكرر فيها النغم الرئيسي.

س : هل تعتقد انه يمكن ان يترجم الى الفرنسية العمل الذي تقوم به على اللغة الالمانية ؟

ج : بالطبع ، اذا عرفنا كيف نعود الى غنى اللغة الفرنسية التي سبقت وجود الاكاديمية الفرنسية . اعتقد ان الادب الفرنسي أصبح محدودا بصفائية (١) الاكاديمية. ان الاعمال الادبية الاوروبية الاكثر اهمية ترتد الى الروايات الاسبانية والى رابليه ، وتلك الروايات تأثرت بالادب الفرنسي الذي يتبع التقليد « الرابليوي » بينما الادب الفرنسي الكلاسيكي بقي دون ازدهار في الخارج.

س : من هم الكتاب الفرنسيون الذين تقرأهم ؟

ج : لقد ترجم فيتشاخت رابليه . وذلك التقليد الذي يجول بين رابليه وفيتشاخت تطاول بلا انقطاع ، فنجد دائما الفكرة الملحمية عند جويس مثلا . او في امريكا والفرد دوبلن في ألمانيا . انها فكرة الرواية الملحمة الكبيرة التي تنسف جميع الحواجز القومية ، باعطاء اللغة قدرة مجتاحة .

س : اذا انت ايضا تفكر ان تتعدى تلك الحدود القومية وذلك بكتابة رواية ملحمية كبيرة ، هل تعتقد انك ستبلغ ثقافات اخرى ؟

ج : نعم ، ولذلك يجب ان نعود الى التقليد الادبي الذي تكلمنا عنه فيما سبق . ان الحواجز تبرز عندما نتخذ من السلوك القومي معيارا . هذه حالة الرواية الانكليزية عندما تفضل ان تتحدد بفولدسميث بدلا من سترن أو سويفت . يجري الحديث في انكلترا وكأن سترن او جويس لا محلّ لهما في الوجود .

س : هل هناك تناقض خاص بألمانيا بين الرومنطيقين والكلاسيكيين ؟

ج : نعم ، فالبعض منهم يبقى قريبا جدا من الكلاسيكية كتوماس مان وبرشت. أما المثل المعاكس فهو ألفرد دوبلن الذي اعتبره معلما لي بعض الشيء . فهو يتجدد من كتاب الى كتاب .

س : ليس لدوبلن شهرة كبيرة في فرنسا ...

ج : يجب ان يوضع ، في نظري ، على مستوى توماس مان وبرشت . حتى انه في بعض النواحي اهم منهما . ان مجالي الخلق عنده تذهب في كل اتجاه ويمكن أن تقترح لاعمال لاحقة .

س : هناك اذن « ادب الماني » ؟

ج : ان الادب الالماني ، الى جانب ادب امريكا الجنوبية هو اهم ادب يمكن اليوم ان يقرأ . والادب الالماني يشمل أدب ألمانيا الاتحادية، والمانيا الشرقية، والنمسا وسويسرا الالمانية . وذلك الادب يتطور بشكل مستمر منذ ١٩٤٥، وكل جيل متصل بالجيل الذي سبقه . هناك بعض كتاب المانيا الاتحادية كـ « والسر » و «انزنسبرجر » مثلا كانوا ينطلقون من فكرة الهزيمة المطلقة ، والاستسلام، والجرائم الالمانية ، وهناك كتاب اخر لكريستا وولف او « هيرمن كانت » انضموا الى القوى المنتصرة واعلنوا بناء ألمانيا جديدة . ولكن الان ، عندما بهتت صورة المانيا الشرقية ، بدأ هؤلاء الكتاب يعودون الى كتابة روايات تعود الى الفترة التي سبقت عام ١٩٤٥ . انه وضع كريستا وولف . هناك بالطبع توتر رهيب داخل المانيا في المجال الادبي الالماني بسبب هذه التطورات العديدة . ولكن ذلك هو سبب لحيوية الادب .

س : هل يواجه الكتاب الالمان دائما تاريخهم الخاص؟

ج : ان المسألة هي ان نعلم الى اي حد هم مستعدون لهذه المواجهة. بعد عام ١٩٤٥ ، كان وضع المانيا يجبر الكتاب على تلك التساؤلات الكبيرة . حتى الكاتب الشاب الذي ولد بعد الحرب لا يزال يعاني من الاثار النازية . والوضع يختلف في البلدان الاخرى ، ففي فرنسا مثلا، هرب الادب الى اعتبارات جمالية ـ لها اهميتها ـ كالرواية الجديدة ـ ولكنها لا علاقة لها بالمشكلات الاجتماعية والسياسية .

س : يتصرف الادب الفرنسي وكأن هناك استمرارية للتاريخ .

ج : يتصرف وكأن تلك الاستمرارية موجودة دائما ، بالرغم من ان ذلك غير صحيح ، اذ ان الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية قد اضمحلت . والوضع متشابه في انكلترا ، ولكن الكتاب الانكليز لا يزالون يكتبون وكأن امبراطوريتهم الاستعمارية لا تزال قائمة . اما في المانيا فكانت الهزيمة من العمق بحيث لا يستطيع احد ان يسمح لنفسه بموقف مماثل .

---

(١) حرص مفرط على صفاء اللغة والاسلوب (م. المنهل) .